كـلـمـة الـعـــدد

مهند مصطفى وعرين هواري

يتناول هذا العدد المضاعف من مجلّة جدل موضوع المدينة الفلسطينيّة، تحوّلاتها الثقافيّة، السياسيّة، الاجتماعيّة والعمرانيّة، وذلك في إطار المبنى الكولونياليّ الاستعماريّ الإسرائيليّ، داخل الخطّ الأخضر وفي المناطق المحتلّة عام 67، وفي إطار المبنى الاجتماعيّ العربيّ الفلسطينيّ. تتناول مقالات العدد المستوى العامّ لتحوّلات المدينة الفلسطينيّة، مع تقديم حالات دراسيّة عينيّة لمدن /تجمّعات سكنيّة فلسطينيّة مثل حيفا والناصرة وأمّ الفحم ورام الله. يثير العدد جوانب عديدة من المسائل التي تتعلّق بالمدينة الفلسطينيّة، ولكن أهمّها هو الجانب المعرفيّ - الإبستمولوجيّ، فهل يمكن أن تشكّل المدينة أو القطيعة عن الحالة المدينيّة التي سادت في المجتمع الفلسطينيّ قبل النكبة إطاراً تحليليّا معرفيّا للتحوّلات الاجتماعيّة والثقافيّة والسياسيّة في المجتمع الفلسطينيّ، أم إنّها نتاج للمشروع الكولونياليّ الصهيونيّ ولا يمكن أن تكون هي بذاتها إطاراً معرفيّا تحليليّا، أم يمكن إعادة مَفْهَمتها في إطار نظريّ مركّب مع الإطار الكولونياليّ لفهم تحوّلات المجتمع الفلسطينيّ. تحتاج هذه الأسئلة إلى بلورة نظريّة ودراسات أكاديميّة حول المدينة أو الحالة المدينيّة الفلسطينيّة، وخاصّة أنّ المكتبة المعرفيّة الفلسطينيّة لا تزخر كثيراً بدراسات إبستمولوجيّة وسوسيولوجيّة عن المدينة الفلسطينيّة، بينما تهيمن على الإنتاج البحثيّ الدراساتُ التاريخيّة التوثيقيّة. يشكّل هذا العدد المضاعف دعوة للباحثين العرب الفلسطينيّين من كلّ الأنساق المعرفيّة لدراسة موضوعة المدينة والمدينيّة الفلسطينيّة، ونبتغي ونأمل أن يسهم في مَوْضعة هذا الحقل المعرفيّ على أجِنْدة البحث الفلسطينيّة في المستقبل المنظور. ويمكن أن نشير إلى ثلاثة متغيّرات مركزيّة تناولتها المقالات وأحدثت التغييرات على المدينة الفلسطينيّة، في السياق الكولونياليّ الإسرائيليّ، والتحوّلات الاقتصاديّة النيوليبراليّة، والبنْية الاجتماعيّة الثقافيّة.

يضمّ العدد الحاليّ مجموعة كبيرة من المقالات قُسمت إلى قسمين: القسم الأوّل يتناول بتحليل عامّ واقع المدينة الفلسطينيّة اجتماعيّا وعمرانيّا وثقافيّا، ويشمل أربعة مقالات. أمّا القسم الثاني، فيتناول حالات دراسيّة عينيّة لمدن /تجمّعات سكنيّة فلسطينيّة: أمّ الفحم؛ حيفا؛ الناصرة؛ رام الله.

في القسم الأوّل، يتناول الدكتور مسلم محاميد حالة يسمّيها "القرمدينة" في التجمّعات السكنيّة الفلسطينيّة داخل الخط الاخضر، وهو مقال يحاول تحليل السلوكيّات الاجتماعيّة اليوميّة النابعة من تلك "القرمدينة" التي أوجدتها الكولونياليّة الإسرائيليّة وتواطأت معها الشرائح الاجتماعيّة، وهي تتمثّل في الانقطاع عن إيجابيّات القرية، دون التواصل مع إيجابيّات المدينة، وفي الإبقاء على سلبيّات القرية دون صدّ سلبيّات المدينة.

ويتناول البروفيسور راسم خمايسي في مقاله التحوّلات العمرانيّة التخطيطيّة في التجمّعات السكنيّة الفلسطينيّة، بعد بتر عمليّة التمدّن والـمَدْيَنة التي تطوّرت في فلسطين ونكبة المدينة العربيّة عام 1948، ويقترح رؤية ناقدة لقطبيّة المدينة /القرية، ويشير إلى أنّه "بعد استئناف تطوّر المدينة يتطلّب منّا تجنّب استمرار الترنّح بين القرويّة والمدينيّة،

وإنتاج مفاهيم تَقرأ قراءة ناقدة مَشهد واقع مدننا وتهيّئ للمستقبل دون نسخ ومحاكاة، بل عَبْر استنباط دروس وعِبَر لبناء مدننا وتطويرها بما يتناسب مع حاجاتنا لننمو ونتطوّر ونطمئنّ فيها.

وفي إطار المقالات العامّة، التي تناقش الجانب الاجتماعيّ، يحلّل الدكتور إبراهيم محاجنة في مقالته موضوع التضامن والتكافل الاجتماعيّين في المدينة الفلسطينيّة، من خلال ما أطلق عليه مَفْهَمة "التمدُّن الاجتماعيّ"، معتبرًا " أنّ "المدن الفلسطينيّة الـمُنْشَأة في ظلّ الكولونياليّة الإسرائيليّة" تعاني من تمدُّن اجتماعيّ "جزئيّ" وَ "مأزوم" وَ "مشوّه" في أعقاب "تمدُّن قسريّ". ويرى محاجنة أنّ نظام التكافل الاجتماعيّ غير الرسميّ في هذه المدن، وهو تكافل إغاثيّ على شكل منح ماليّة ومساعدات وهدايا يرتكز على قرابة الدم ثم يتّسع ليشمل الأصدقاء والجيران والمعارف، يعمل كشبكة أمان مهمّة لصالح الأُسَر الفقيرة على الرغم من عدم كفايته وعدم انتظامه لكونه موسميًا.

وفي السياق نفسه، تطرح الباحثة لبابة صبري البنْية الثقافيّة للمدينة الفلسطينيّة، مؤكّدة "أنّ البنية الاجتماعيّة والثقافيّة في المدينة الفلسطينيّة لم تتغيّر، وأقصد بالبنية هنا الوعي الجمعيّ والثقافة التي تتولّد منها كالعادات والتقاليد ومفهوم الهُويّة والوطن والعقد الاجتماعيّة وقوانين الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة والسياسيّة التي تحكم أفراد المجتمع". وفي ظلّ الحكومات الإسرائيليّة استحوذت تلك البنية البرجوازيّةُ الصاعدة على الخطاب السياسيّ والاجتماعيّ وعلى الإنتاج الثقافيّ، حماية لامتيازاتها؛ لتَكُون هي صاحبة القرار الاقتصاديّ والسياسيّ والفكريّ والاجتماعيّ.

يَفتتح القسمَ الثاني من العدد الدكتور أحمد اغباريّة بتحليل الواقع العمرانيّ - الثقافيّ في مدينة أمّ الفحم، مبيّنًا عاملَيْن ساهَما في تشكيل البنْية العمرانيّة الثقافيّة والسياسيّة والاجتماعيّة في المدينة، يتمثّلان في الإسلام السياسيّ والكولونياليّة الإسرائيليّة، حيث يوجّه نقدًا شديدًا لتطوّر المدينة لتصبح "معزولة عن تاريخها القريب وعن تراثها الحقيقيّ البعيد، وتعيش مزاجًا روحيًا مرتبكًا بين الأرضيّ والسماويّ، أو بين الدنيويّ والدينيّ، ناهيكم عن الممارسات اليوميّة للمستعمر التي تفرّغ مفهوم "المواطنة" من مضمونه، وتصرف النظر عن مجرّد التعويل عليه في واقع مستقبليّ. للأسباب المذكورة مجتمعة، فإنّ هذه المدينة لا تُنتج معرفة عن ذاتها، فهي لا تعيش وضعًا طبيعيًا، بل جلّ ما يُنتَج فيها هو ترديد لشعارات دينيّة مستهلَكة، أو التغنّي بمقولات وطنيّة ممجوجة".

ويتناول الدكتور نديم كركبي الحالة الثقافيّة في مدينة حيفا، ويرصد التحوّلات الثقافيّة فيها منذ بروزها كمدينة عالميّة حاضنة لثقافة الطبقة الوسطى في الثلاثينيّات، مرورا بالنكبة ووصولا الى اليوم. يتعرّض كركبي لبعض الأفكار المرتبطة باعتبار حيفا عاصمة للثقافة العربيّة في الداخل، الامر الذي ينسجم مع الرغبة باستعادة المدينة الفلسطينيّة المفقودة منذ النكبة. ويرى بان الطبقة الاجتماعيّة الفلسطينيّة التي تملك الرفاهيّة الاقتصاديّة في حيفا ومدن أخرى تسعى إلى إعادة إنتاج وتعريف المساحات المدنيّة الفلسطينيّة؛ وذلك على أساس ثقافيّ لا اقتصاديّ. ويشير أيضا الى نشوء وتطور مؤسسات المجتمع المدني والمبادرات كالجمعيّات غير الحكوميّة الفلسطينيّة التي استقطبت بنشاطاتها جمهورًا وفنّانين من خارج المدينة، من بينهم العديدون ممّن استقرّوا في حيفا باحثين عن الحياة العَلمانيّة والفرديّة التي توفّر الشعور بالحرّيّة والخصوصيّة.

وتتناول الباحثة نسرين مزّاوي مدينة الناصرة في إطار "تغييرات ثقافيّة وعمرانيّة في الحيّز المدينيّ للناصرة"، وتطرح التحوّلات العمرانيّة في المدينة بالمفهوم الواسع للعمران وانعكاساته الاقتصاديّة والثقافيّة والاجتماعيّة، ووجهة المدينة

مستقبلها، وتشير في هذا المضمار أنّ "التغيّرات الثقافيّة في الحيّز المدينيّ للناصرة، إضافة الى التغيّرات في أنماط الحياة وانعكاساتها في الهُويّة تحوي الأمر ونقيضه ووجود الأوّل يُعضّد وجود الثاني. نسيج خاصّ من العلاقات العميقة والمركّبة والمتناقضة يجمع بين سكّان المدينة بتناسق وانسجام معتدل. كلّها معًا تشكّل فسيفساء يعكس عناصر أساسيّة في حياة الفلسطينيّين في إسرائيل، وأيّ محاولة لفهم الناصرة وما يمرّ عليها من تغيّرات يتطلّب النظر إلى الفسيفساء الكامل والتمعّن بمركّباته كافّة، وما الناصرة إلّا مدينة منكوبة تعكس نكبة مجتمع بأكمله".

ويستعرض القسم الثاني من هذا العدد مقالين عن التحوّلات في مدينة رام الله، وخاصة بعد اتّفاق أوسلو وقيام السلطة الفلسطينيّة، فيحاول الدكتور جميل هلال أن يفهم التحوّلات في المدينة ووجهتها المستقبليّة إثر التغيّرات التي حصلت ولا تزال تحدث بعد اتّفاق أوسلو، مبيّنًا أنّ "التحدّي الأكبر للمدنيّة في الجمع بين أن تكون مدينة تعدّديّة ومنفتحة ومبدعة وأن تمارس الاشتباك مع النظام الاستعماريّ الاستيطانيّ العنصريّ، وفي إدراكها أنّ قيم الرأسماليّة الجشعة تتنافى مع قيم الحرّيّة المستندة إلى المساواة والتكافل والعدالة".

وفي الشأن نفسه، تقدّم الباحثة الفلسطينيّة لوزيّة بزار قراءة تاريخيّة سوسيولوجيّة للتحوّلات التي حلّت على مدينة رام الله حتّى اليوم، حيث تؤكّد أنّه "لم تكن رام الله -المدينة الأوسلويّة- بالرغم من أهمّيّة التطوّرات التي أعقبت أوسلو وعودة السلطة الفلسطينيّة إلى البلاد من الخارج، فمركزيّة رام الله جاءت على نحوٍ تدريجيّ كمكان حضريّ نشأ منذ الحكم العثمانيّ، وتوسّع في زمن الانتداب البريطانيّ، لتُعاد هندسته في فترة الحكم الأردنيّ، واستمرّ لاحقًا حتّى أصبحت بصورتها الحاليّة".